المبحث الثاني

الاستعارة

تعد الاستعارة الفن المتميز من فنون علم البيان، ذلك انها تجلوا المعاني وتوضحها، والاستعارة فن اصيل في اللغه العربيه، وليس ادل على ذلك من ان القرآن الكريم لم يكن ليخاطب قوما لا يفهمونه أو لايستطيعون تذوقه،بل لابد من امتلاكهم ثقافة ادبية خاصة - وان لم تصل الى تلك التي امتلكها العرب بعد الاسلام - فقد كانت تلك الثقافه - بوصفها الاستعداد للانتقال من الظلمات الى النور - تتناسب مع مافي القرآن الكريم من فصاحة وبلاغة، وكانت الاستعارة وفهمها وتاثيرها تمثل جزءا من تلك الثقافه اللغويه عند العرب،ويمكن القول ان الحديث عن الاستعارة لا يوفى حقه في مبحث أو فصل، فكيف إذا كان الحديث عن الاستعارة القرآنيه بوصفها وجها من وجوه الإعجاز البلاغي؟

الاستعارة لغة:

الاستعارة في اصل اللغه نقل الشيء من شخص الى آخر، والعارية والعارة: ماتداولوه بينهم، وقد اعاره الشيء واعاره منه وعاوره اياه، والمعاورة والتعاور شبه المداولة والتداول يكون بين اثنين، وتعور واستعار: طلب العارية، واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه ان يعيره اياه[1].

الاستعارة اصطلاحا:

هي ((ان تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به))[2].

ان المعنى الاصطلاحي لايبعد عن المعنى اللغوي، فالاستعارة قد اخذت من العاريه الحقيقية والتي هي ضرب من المعاملة بان يستعير شخص من شخص شيئا، ولايكون ذلك الابين شخصين بينهما علاقة معرفه، وهكذا الاستعارة، فالمشاركة بين اللفظتين في نقل المعنى من احدهما الى الأخرى كالمعرفة بين الشخصين[3] .

(1) =: ل: 618/4 مادة (عور).
(2) مفتاح العلوم / 174.
(3) =: الطراز: 198/1.

الاستعارة عند السابقين للرماني:

لعل ابا عمروبن العلا(ت 154هـ) من اقدم الذين ذكروا الاستعارة، فقد ذكر الحاتمي (ت 388 هـ) انه قال في قول ذي الرمة[1]:

اقامت به حتى ذوى العود في الثرى وساق الثريا في ملاءته الفجر

((لااعلم قولاً احسن من قوله: (وساق الثريا في ملاءته الفجر) فصير للفجر ملاءة ولا ملاءة له، وانما استعار هذه اللفظه وهومن عجيب الاستعارات))[2] وللباقلاني إشارة توحي بان الاصمعي (ت 216 هـ) وحمادا أيضاً قد تحدثوا عن الاستعارة، إذ يقول عن استعارة امرى القيس في قوله[3]:

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل

((وذكر الاصمعي وابو عبيدة وحماد وقبلهم ابو عمرو انه احسن في هذه اللفظة وانه اتبع فلم يلحق، وذكروه في باب الاستعارة البليغه))[4] .

ونلمح عند سيبويه معنى الاستعارة المكنية أو التخييلية وذلك في تعليقه على بيت عامر بن الاحوص:

وداهية من دواهي المنو ن يرهبها الناس لافالها[5]

يقول:((فجعل للداهية فما))[6].

ويشير الفراء من خلال تفسيره للايات الى أسلوب الاستعارة دون تسميتها، من ذلك حديثه عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[7]، يقول: ((هو كتغيظ الادمي إذا غضب فعلا صدره وظهر في كلامه))[8].

(1) ديوانه: 561/1، و =: حلية المحاضرة: 1 / 33، ورواية الديوان: (ذوى العود والنوى).
(2) حلية المحاضرة: 33/1.
(3) ديوانه / 19، و =: اعجاز القرآن / 107.
(4) إعجاز القرآن، الباقلاني / 107 - 108.
(5) الكتاب: 316/1.
(6) م ن: 316/1.
(7) سورة الفرقان: 12.
(8) معاني القرآن : 263/2.

أمّا ابو عبيدة فقد ذكر تسمية الاستعارة في اكثر من موضع، ففي تعليقه على قول الفرزدق[1]:

لاقوم اكرم من تميم إذ غدت عوذ النساء يسقن كالاجال

يقول:((قوله (عوذ النساء) هن اللاتي معهن اولادهن، والاصل في (عوذ) في الابل معها اولادها فنقلته العرب الى النساء وهذا من المستعار))[2] . أمّا اول تعريف للاستعارة فنجده عند الجاحظ إذ يقول ((تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه))[3] وقد اطلق عليها أيضاً

(مثلا) و(بديعا)[4] و (بدلا)[5]. وعقد ابن وهب بابا مستقلا للاستعارة قال فيه ((واما الاستعارة فانما احتيج إليها في كلام العرب لأن الفاظهم اكثر من معانيهم، وليس هذا في لسان غير لسانهم، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره، وربما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز))[6].

وعقد ابن قتيبة بابا للاستعارة قال فيه ((فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الاخرى أو مجاورا لها أو مشاكلا فيقولون للنبات نوء لانه يكون عن النوء عندهم))[7] ، ولاشك ان ماذكره ينطبق على المجاز كله لاسيما المرسل الذى من علاقاته السببية والمجاورة.

أمّا عند ثعلب فالاستعارة ((ان يستعار للشيء اسم غيره، أو معنى سواه))[8]، كقول امرىء القيس[9] في صفة الليل، فاستعار وصف الجمل:

فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازا وناء بكلكل

(1) ديوانه: 161/2، و =: كتاب النقائض: 1 / 275.
(2) كتاب النقائض، لأبي عبيدة: 275/1.
(3) البيان والتبيين: 152/1-153.
(4) =: م ن: 55/4.
(5) =: الحيوان: 573/4،278.
(6) البرهان في وجوه البيان / 142.
(7) تأويل مشكل القرآن / 135.
(8) قواعد الشعر /57.
(9) ديوانه /18، و =: قواعد الشعر / 57، ورواية الديوان (تمطى بجوزه) أي بوسطه.

ويخصص ابن المعتز الباب الاول من كتابه للاستعارة دون تعريف أو شرح أو توضيح، بل يكتفي بسرد الامثلة التي تتدرج من القرآن الى الحديث ثم كلام الصحابة فالشعر العربي القديم[1].

والاستعارة عند قدامة من احسن ابواب البلاغة، فقد تحدث عن الاستعارة التمثيلية بقوله: ((التمثيل: ان يراد الاشارة الى معنى فتوضع الفاظ تدل على معنى آخر وذلك المعنى وتلك الالفاظ مثال للمعنى الذي قصد بالاشارة إليه والعبارة عنه))[2] .

ويذكر الامدي الاستعارة في تعليقه على قول البحتري:

قد بين البين المفرق بيننا عشق النوى لربيب ذاك الربرب

يقول: ((فنسب العشق الى النوى على سبيل الاستعارة))[3].

وفي ضوء ماتقدم يمكن القول ان الخلط بين الاستعارة وانواع المجاز الاخرى كان واضحا عند بعض السابقين للرماني لاسيما عند ابن قتيبة وقدامة، وذلك نتيجة الاضطراب في المصطلحات في ذلك العصر، وان الانواع الاخرى للمجاز عرفت فيما بعد ولذلك فقد استمر بعض هذا الخلط الى مابعد الرماني أيضاً حتى ظهرت الانواع الاخرى للمجاز ثم بدأ علماء البلاغة يفرقون بين كل نوع منها.

الاستعارة في منظور الرماني :

الاستعارة عند الرماني ((تعليق العبارة على غير ماوضعت له في اصل اللغة على جهة النقل للابانة))[4].

لقد تعرض هذا التعريف الى انتقادات كثيرةمن القدماء، نذكرها مع تحليلنا للتعريف يغية مناقشتها من خلاله، ولابد من الإشارة قبل ذلك الى ان ابن رشيق قد ذكر تعريفا آخر للاستعارة نسبه الى ابي الحسن الرماني، إذ قال: ((قال ابو الحسن الرماني: الاستعارة استعمال العبارة على غير ماوضعت له في اصل اللغة، وذكر قول الحجاج: اني ارى

(1) =: كتاب البديع /3 وما بعدها.
(2) جواهر الالفاظ /7.
(3) الموازنة بين ابي تمام والبحتري /41.
(4) ر / 85.

رؤوسا قد اينعت وحان قطافها))[1] إلاّ ان الكتاب سيعتمد التعريف الوارد في النكت لاننا نجده مكتمل الاركان ويتميز بالسمة التي تميزت بها تعريفات الرماني.

اول تلك الانتقادات مانجده عندعبد القاهر الجرجاني - والذي لايذكر اسم الرماني - إذ يقول: ((واعلم انه قد كثر في كلام الناس استعمال لفظ النقل في الاستعارة فمن ذلك قولهم: ان الاستعارة تعليق العبارة على غير ماوضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل))[2]، ويرفض الجرجاني لفظة (نقل) إذ يقول: ((ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء الى شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء))[3]، ويطيل الجرجاني الحديث بغية التاكيد على ان اللفظ في الاستعارة يكون تبعآ للمعنى ((فالمستعار بالحقيقة يكون معنى اللفظ واللفظ تبع))[4] ويقول أيضاً: ((ان الذي قالوه من انها تعليق للعبارة على غير ماوضعت في اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه))[5].

واذا كان الجرجاني في دلائل الإعجاز قد أكّد على انها (ادعاء) ففي الاسرار نجده يعترف بـ (النقل) إذ يقول: ((الاستعارة في الجملة ان يكون لفظ الاصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على انه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الاصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية))[6]، فضلا عن ان الجرجاني يجعل الاستعارة - في اسرار البلاغة[7] - مجازآ لغويا، ويجعلها - في دلائل الإعجاز[8] - مجازا عقليا. وقد صرح الرازي بذلك إذ قال: ((اضطرب رأي الشيخ في ان هذا المجاز عقلي ام لغوي))[9] وراي الرازي انها مجاز لغوي. ويذكر الرازي تعريف الرماني ثم يقول:((وهذا باطل من وجوه اربعة: الاول: انه يلزم ان يكون كل مجاز لغوي استعارة....، الثاني: يلزم ان يكون الاعلام المنقولة من باب المجاز، الثالث: استعمال اللفظ

(1) العمدة: 241/1.
(2) دلائل الإعجاز /386.
(3) م ن /386، 388.
(4) ن / 404.
(5) ن / 388.
(6) اسرار البلاغة /35 - 36.
(7) =: ص350 وما بعدها.
(8) =: ص 131، 384.
(9) نهاية الإيجاز / 84.

في غير معناه للجهل بذلك يجب ان يكون مجازا، الرابع: انه لايتناول الإستعارة التخييلية))[1].

ويرى العلوي[2] (ت745 هـ) ان تعريف الرماني فاسد من اوجه ثلاثة، ويورد الاوجه الاوجه الثلاثة الاولى التي ذكرها الرازي..

ونتامل - بعد ذلك - تعريف الرماني لنتبين صحة ما وجه إليه من هذه الانتقادات اوعدمها، لاسيما اننا قد عرضنا قبل ذلك تعريفات السابقين له. فاذا كانت الاستعارة عند الجاحظ (تسمية الشيء باسم غيره) وعند ابن قتيبة (ان تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة)، فانها عند الرماني (تعليق العبارة) لا الكلمة ولا الشيء، ولهذا التركيب مغزى وقصد، فلفظة (التعليق) لها دلالات متعددة لاتبتعد بعضها عن بعض، فالتعليق في اللغة ((هو ان يناط الشيء بالشيء العالي ثم يتسع الكلام فيه))[3]، وهو من علق الشيء بالشيء ومنه وعليه تعليقا: ناطه، وعلق الشيء خلفه كما تعلق الحقيبة وغيرها من وراء الرحل[4].

فالمعنى اللغوي لهذه اللفظة يوحي بان المعنى الجديد الذي وظف فيه اللفظ المستعار لايكون ثابتا على الدوام وبديلا عن المعنى الاصلي، فضلا عن دلالة (التعليق) على الستر والتغطية للشيء المعلق عليه (المعنى الاصلي) فتكون الهيئة الجديدة للفظ المستعار كأنه زينة علقت لتمنح التركيب جمالا فضلا عن ادائها المعنى اداء كاملا.

ولاشك بعد ذلك ان التعليق قد منح التعريف دلالة تفيد ان المعنى الاصلي لايترك على جهة الثبات، وانما هو معلق الى اجل مداه تأدية الوظيفة المناطة باللفظ وهي المعنى الجديد.

أمّا اللفظة الاخرى في التعريف وهي (العبارة) فقد جاءت شاملة (للمستعار) فقد يكون لفظا وقد يكون اكثر من ذلك - ولفظة (النقل) التى عدت مأخذا على التعريف - عندعبد القاهر - نجدها ملائمه له، اذاما امعنا النظر في دلالتها، فالرماني لم يقصد ابدا ان يكون هذا النقل خاصا باللفظ دون المعنى أو ان يترك المعنى الاصلي تركا نهائيا ويبتعد عنه، ويبدو ذلك واضحا خلال تعليقه على الشواهد وربط المعنى الجديد بالمعنى اللغوي

(1) م ن / 115.
(2) =: الطراز: 199/1.
(3) مقاييس اللغة: 125/4.
(4) =: ل: 262/10، 265 مادة (علق).

الاصلي، وتوضيح مابينهما من علاقة.واذا بحثنا عن دلالات هذه اللفظة سنجد ان النقل في اللغة تحويل الشيء من موضع الى موضع، والنقل: الطريق المختصر، والنقل مايبقى من الحجر إذا اقتلع، ومن البيت إذا هدم، والنقيل: الغريب في القوم ان رافقهم أو جاورهم[1].

ولفظة النقل أيضاً ((تدخل في السرقات الشعرية غير الظاهرة، وهي ان ينقل الشاعر الثاني عن الاول معنى الى غير محله))[2] فهي هنا تختص بالمعنى، وفي ضوء ذلك نجد ان النقل لايعني نقل اللفظ عن معناه الاصلي وتحويله الى المعنى الجديد دون وجود رابط أو بقاء شيء من ذلك المعنى فضلا عن ان من معانيه (الطريق المختصر) وهو ما يناسب غرضا من اغراض الاستعارة وهو الإيجاز، واللفظ المنقول - المستعار - هو (كالنقيل) لكنه متلائم ومتناسق مع النظم. وقد تصور عبد القاهر ان الرماني ومن تبعه في استخدام هذه اللفظة ان النقل عندهم يعني افراغ الكلمة من معناها ونقلها لمعنى آخر، فصور الامر على انه جمع بين نقيضين - خدمة لما اراد الوصول إليه في نظريته في النظم والتي مؤداها ان النظم أو التاليف يكون للمعاني في المقام الاول - إذ يقول ((لانك إنما تكون ناقلا إذا انت اخرجت معناه الأصلي من ان يكون مقصودك ونفضت به يدك، فاما ان تكون ناقلا له عن معناه مع ارادة معناه فمحال متناقض))[3].

ولم يقصد الرماني بلفظة (النقل) افراغ اللفظ عن المعنى الحقيقي لانه كان مدركا ان المعنى الحقيقي مراد في الاستعارة بدليل ماورده في تعليقاته على الشواهد. والحق انه ليس ثمة انفصام بين اللفظ والمعنى، فالكلمة المستعارة لاتفقد المعنى الاصلي وتكتسب معنى جديدا، بل لابد من وجود علاقة بين كلا المعنيين وهو مااكد عليه عبد القاهر الجرجاني أيضاً[4].

فالمسالة ليست هي (نقل) أو (ادعاء) لأن لفظ. (اسد) نقل لزيد لفظا ومعنى، وكذلك هو ادعاء الشجاعة لزيد، لأن الادعاء لايخرج الاشياء عن حقائقها. فالنظرة التحليلية للاستعارة لاتتركز فقط على (النقل) أو (الادعاء) أو غير ذلك من الالفاظ لأن الاستعارة اوسع من ذلك بكثير، فهي احساس جديد بالاشياء وادراك جديد أو رؤية جديدة، إذ نرى بوساطتها

(1) =: ل: 674/11، 675.
(2) الشامل، معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، محمد سعيد اسير، بلال جنيدي /989.
(3) دلائل الإعجاز / 386.
(4) =: اسرار البلاغة /398.

الجماد حيا والمعقول محسوسا، فهي تصرف في الاشياء وليس تصرفا مجردا في الكلمات، وهي نشاط النفس في الاشياء وتاويلها وليس عملا في المواضعات اللغوية فقط[1]. فالنقل الذي قصده الرماني لاشك انه ليس نقلا مجردا من معنى - كما تصوره عبد القاهر - وانما هو ((تغيير حقيقة المشبه وتخييل انه صار الى غير جنسه))[2] وكيف يمكن ان يكون النقل مجردا من المعنى والاستعارة تقوم على التشبيه وتبنى عليه، ذلك التشبيه الذي يضمره المستعير في نفسه وهو معنوي لالفظي[3]؟

لقد أكّد عبد القاهر - كما اوضحنا - ان اللفظ في الاستعارة ينقل تبعا للمعنى، ولا يختلف ذلك عما اراده الرماني، ودليل ذلك ان الرماني قد أكّد على المبالغة بوصفها غرضا اساسيا من اغراض الاستعارة، واكد أيضاً أن الاستعارة ابلغ من الحقيقة،((فإن لم يكن نقل الاسم تبعا لنقل المعنى لم يكن فيها مبالغة لانه لامبالغة في اطلاق الاسم مجردا عاريا عن معناه))[4] فالنقل عند الرماني -بذكره المبالغة - يعني نقل اللفظ والمعنى، بدليل قوله: ((فاللفظ المستعارقد نقل عن اصل الى فرع للبيان))[5] فلفظنا (الفرع) و(الاصل) لايعني بهما اللفظ فقط، وانما يعني المعنى، فضلا عن انهما تدلان على وجود علاقة أو مناسبة بينهما، ولفظة (البيان) تدل على غاية النقل فهو بيان المعنى فضلا عن الجانب الفني، والدليل الآخر قوله: ((كل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما))[6]، فلم يقل (بلفظ مشترك) لانه قصد بلفظة (نقل) المعنى أيضاً. وقد أكّد السيوطي على ذلك أيضاً بقوله: ((ليس نقل الاسم المجرد استعارة لانه لابلاغة فيه بديل الاعلام المنقولة))[7].

ومن جانب آخر، فان لفظة (نقل) تدل على انه ليس نقلا دائميا، وهو ما اكده الغزالي (ت 505 هـ) بقوله عن الالفاظ المستعارة ((فهي ان يكون اسم دالا على ذات الشيء بالوضع ودائما من اول الوضع الى الان ولكن يلقب به في بعض الاحوال لاعلى الدوام شيء آخر لمناسبته للاول على وجه من وجوه المناسبات من غير ان يجعل ذاتيا للثاني وثابتا عليه..... وخصص باسم

(1) =: التصوير البياني، محمد ابو موسى /184.
(2) م ن / 184.
(3) =: فن الاستعارة، د. احمد عبد السيد الصاوي /20-21.
(4) م ن /111.
(5) ر / 86.
(6) ر / 86.
(7) الاتقان في علوم القرآن: 44/2.

المستعار لأن العارية لاتدوم وهذا أيضاً يستعار في بعض الاحوال))[1]، ثم ان وجود لفظة (الإبانة) في التعريف لهي دليل على انه قصد (المعنى اولا) والا فما هو الشيء الذي تؤديه الاستعارة في الإبانة، اليس هو المعنى؟ فالاستعارة عنده ليست تبديلا للكلمات أو نقلا فقط، وانما هي في حقيقتها ((مشاعر وافكار يقترض بعضها من البعض الآخر بصورة متعمقة وتعانق صميم في سياقات متالفة وليست شكلا اضافيا أو ثوبا تزيينيا للغة))[2]، ولو كان النقل عند الرماني مجردا من المعنى لما قال بعد ذلك ((فكل استعارة لابد لها من حقيقة، ولابد من بيان لايفهم بالحقيقة))[3] فالاستعارة عنده وسيلة مبينة عن احوال لاتظهر إلاّ بها، مما يكون حول الحقيقة من احوال وهواجس لايؤديها التعبير بالحقيقة[4] .

ونعود بعد ذلك الى الاوجه التي ذكرها كل من الرازي والعلوي في افساد تعريف الرماني:

فاذا كان الوجه الاول صحيحا، فاننا نجد ان في بقية الاوجه نظرا:

فالوجه الثاني ذكره الرازي وتغافل عن شيئين: الاول: مدلول لفظة (النقل) الذي اوضحناه، والثاني: لفظة (الإبانة) إذ لاشك ان الرماني قد ادرك قبل السيوطي ان ((ليس نقل الاسم المجرد استعارة لانه لابلاغة فيه بدليل الاعلام المنقولة))[5] ثم ان ذكره للابانة يخرج الاعلام المنقولة من باب المجاز، فاي ابانة تمتاز بها هذه الاعلام؟

وقد أكّد الرازي نفسه ان اللفظ يكون مجازا بشرطين: ((الاول: ان يكون منقولا عن معنى وضع اللفظ بازائه اولا وبهذا يتميز عن اللفظ المشترك، الثاني: ان يكون ذلك النقل لمناسبة بينهما وعلاقة ولاجل ذلك لاتوصف الاعلام المنقولة بانها مجازات مثل تسمية الرجل بالحجر))[6] وهذه العلاقة قد أكّد عليها الرماني دائما خلال تعليقه على الشواهد، وتاكيده على على ان الحقيقة اصل والاستعارة فرع، وهذه العلاقة التي يشترطها الرازي لاشك انها رد على الوجه الثالث أيضاً، فالجاهل حين يستعمل اللفظ في غير معناه سيكون جاهلا لهذه العلاقة غير مدرك لها، فكيف يعد ذلك مجازا حين لايجد المتلقي هذه العلاقة، وهكذا فقد حمل الرازي

(1) معيار العلم في فن المنطق، للغزالي /56، و =: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد /145.
(2) فلسفة البلاغة / 158.
(3) ر / 86.
(4) =: الإعجاز البلاغي / 119.
(5) الاتقان في علوم القرآن : 148/3.
(6) نهاية الإيجاز /81 .

كلام الرماني اكثر مما يحتمل، وتعامل مع التعريف على انه مجرد الفاظ دون الاخذ بنظر الاعتبار مايتصف به قائلها من علم وادراك، فضلا عن ان المسألة لا دخل لما يقوله الجاهل فيها، بل هي مسألة علم وادراك للالفاظ ومعانيها الاصيلة وما يمكن ان توظف فيه من معان جديدة، وادراك لما بينها من علاقات وتفاعل تتدخل فيه طاقات الانسان وحواسه المختلفة.

ومما يمكن ان يقف الى جانب الرماني في رد هذه الانتقادات، ما اورده المظفر العلوي(ت 656 هـ) من حديث للرماني - لم يرد في النكت - يفرق فيه بين الحقيقة والمجاز يقول ((قال علي بن عيسى الرماني: الحقيقة الدلالة على المعنى من غير جهة الاستعارة، والمجاز تجاوز الاصل الى الاستعارة، وانما يعدل عن الحقيقة الى المجاز لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه))[1].

أمّا الوجه الرابع، فالرماني كان مدركا لحقيقة الاستعارة وبنائها على التشبيه المضمر في النفس، فالتشبيه المعنوي المضمر في النفس هو اساس الاستعارة بكل انواعها ومنها (التخييلية)، وهذا الادراك لحقيقة الاستعارة جسده الرماني بدلالات الفاظ تعريفه لاسيما (التعليق) و (النقل) وكذلك (الإبانة) والتي تعني ((ان يفصح التعبير عما يجده قائله وان يكشف غوامض فكرته ويجلي خوافي نفسه، وليس للعبارة فضل غير متصل بهذا))[2] دون اغفال الجانب الفني. وهكذا نجد ان جزءا من اعتراضاتهم على الرماني جاءت من قبيل المماحكات العقلية لاسيما ادعاؤهم ان تعريفه للاستعارة يدخل انواع المجاز الاخرى وقد اغفلوا ان انواع المجاز لم تعرف إلاّ بعد الرماني بزمن.

بقي ان نقول ان الرماني قد ذكر (الإبانة) في التعريف بوصفها غرضا من اغراض الاستعارة ووضع بقية الاغراض موزعة في تحليلاته للشواهد،وقد نسب الدكتور محمد ابو موسى غرضي[3] (المبالغة) و (الإيجاز) لابي هلال العسكري، في حين ان الرماني قد ذكرهما واكد عليهما[4].

واذا كان عبد القاهر الجرجاني والرازي والعلوي قد انتقدوا تعريف الرماني للاستعارة، فان من البلاغيين من ارتضى هذا التعريف واخذ به ونقله عن الرماني، من ذلك

(1) نضرة الاغريض في نصرة القريض، للمظفر العلوي /23.
(2) الإعجاز البلاغي /118.
(3) =: الإعجاز البلاغي /118.
(4) =: ر / 87.

مانجده عند ابن رشيق[1]، وابن سنان الخفاجي[2]، والسكاكي الذي نقله دون ذكر الرماني إذ قال ((فلا باس ان احكي لك ماعند السلف في تعريف الاستعارة، حدها عند بعضهم تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على جهة النقل للابانة))[3]، ونقل ابن ابي الاصبع المصري[4] أيضاً تعريف الاستعارة عن الرماني.

ان نقل هؤلاء البلاغيين تعريف الاستعارة عن الرماني يظهر جانبا من اهميته ودقته لاسيما وانه ليس التعريف الاول لها فقد سبقه كثير في حدها، وقد ادى هذا النقل عند من لم يذكر اسم الرماني الى توهم البعض في نسبته الى غيره، فالدكتور احمد عبدالسيد الصاوي[5] اورد تعريف الرماني ونسبه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت392هـ) وتوهم الدكتور رجاء عيد[6] في القول ان العسكري قد أكّد على ان لابد لكل استعارة من حقيقة وهي اصل الدلالة على المعنى، والحق ان العسكري[7] قد نقل ذلك عن الرماني[8].

الفرق بين الاستعارة والتشبيه عند الرماني:

لقد ادرك الرماني ان التشبيه عماد الاستعارة وان بينهما صلات ووشائج، لذلك فرق بينهما بقوله ((والفرق بين الاستعارة والتشبيه ان -ما كان من التشبيه -باداة التشبيه في الكلام فهو على اصله، لم يغير عنه في الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست له في اصل اللغة))[9].

فالتشبيه ليس فيه خروج عن الوضع اللغوي، وليس استعمال كلمة في غير ماوضعت له، بخلاف الاستعارة، فاعتماد الاستعارة على النقل - عنده - دون التشبيه يجعلنا نعده اول من اخرج التشبيه من دائرة المجاز.

والرماني إذ يركز في الطرف الثاني من هذا النص على ماهية الاستعارة، فانه يؤكد الفرق الجوهري بينها وبين التشبيه. وقد وهم[10] ابن سنان في فهم كلام الرماني حيث قال:

---

(1) =: العمدة: 241/1.
(2) =: سر الفصاحة /134.
(3) مفتاح العلوم / 181 - 182.
(4) =: تحرير التحبير: 97/1.
(5) =: فن الاستعارة / 18.
(6) =: فلسفة البلاغة / 125.
(7) =: كتاب الصناعتين / 298.
(8) =: ر /86.
(9) ر / 85 - 86.
(10) =: الإعجاز البلاغي /118، رسالة الرماني تحليل ونقد /150.

((على ان الرماني قال في كلامه: ان التشبيه في الكلام باداة التشبيه وهو يعني - كأن والكاف وماجرى مجراهما- وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة باداة التشبيه فقط))[1] وعلى الرغم من ان الرماني قد أكّد مرة اخرى على ذلك بقوله ((وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان احدهما بالاخر كالتشبيه، الاانه بنقل الكلمة، والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة))[2]، الا ان ذلك يمثل الفرق الاول عنده، أمّا الثاني الثاني فهو ان التشبيه حقيقة ليس فيه خروج عن الوضع اللغوي بينما الاستعارة ((مخرج ما العبارة ليست له في اصل اللغة))[3].

وقد ادرك الرماني ان من التشبيه مالايذكر فيه الاداة ووجه الشبه، وهو ما عرف فيما بعد بالتشبيه البليغ، وقد اختلف البلاغيون في عده تشبيها أو استعارة[4].

واذا كان ماورد في النكت يدل على ان الرماني يعد مالا تذكر فيه الاداة استعارة وليس تشبيها، فإن ذلك لايمثل حكما مطلقا، لأن الزركشي اورد نصا يفيد ان الرماني قد ادرك الفروق الدقيقة بين التشبيه والاستعارة إذ يقول: ((قال الرماني في قوله تعالى: ﴿ **وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً** ﴾ [5]: أي تبصر، لانه لايجوز تقدير حرف التشبيه فيها))[6]، أي في الاستعارة. وقد توسع عبد القاهر الجرجاني في شرح هذه المسالة بنقطتين اساسيتين:

(1) سر الفصاحة / 135.
(2) ر / 86.
(3) ر / 86.
(4) =: الطراز: 207/1.
(5) سورة الاسراء: من 59.
(6) البرهان في علوم القرآن: 418/3.

الاولى: تتعلق بالمشبه أو (المستعار له) فان ذكر فهو تشبيه وان لم يذكر فهو استعارة.
الثانية: التعريف والتنكير لمشبه به أو (المستعار منه) فان كان نكرة ولايمكن تقدير الاداة فهو استعارة، وان كان معرفة وامكن ذلك فهو تشبيه[1]، وهذا ما أكد الرازي عليه أيضاً[2].

اركان الاستعارة عند الرماني:

بعد حده للاستعارة وبيان الفرق بينها وبين التشبيه، يتحدث الرماني عن اركان الاستعارة حديثاً لم نعهده عند سابقيه إذ يقول:((وكل استعارة فلا بد فيها من اشياء: مستعار ومستعار له ومستعار منه))[3]، فالمستعار هو الكلمة، والمستعار منه هو المعنى الرئيس الذى وضعت له في اللغة، والمستعار له هو المعنى الآخر الذي استعملت فيه، ولاشك ان نصيب المشبه به في الاستعارة اكثر من نصيب المشبه، لأن المستعار والمستعار منه يتعلق به ذلك لايجوز حذفه وان حذف لابد من بقاء لازم يدل عليه كما في الاستعارة المكنية.

ولم يزد اللاحقون الرماني شيئا على ما ذكره في اركان الاستعارة، وقد كان ما ذكره اساسا اعتمدوا عليه في دراسة هذا اللون البلاغي والكتاب فيه.

اقسام الاستعارة عنده:

لم يعمد الرماني الى وضع الاستعارة تحت مصطلحات متعددة كما استقرت عليها عند من جاء بعده، ولكنه قبل ان يذكر الشواهد أشار الى الاستعارة البليغة والاستعارة الحسنة حيث قال ((وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان احدهما بالاخر كالتشبيه إلاّ انه بنقل الكلمة، والتشبيه باداته الدالة عليه في اللغة، وكل استعارة حسنة فهي توجب بيان لاتنوب منابه الحقيقة، وذلك انه لو كان تقوم مقامه الحقيقة كانت اولى به ولم تجز الاستعارة، وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة وهي اصل الدلالة على المعنى في اللغة))[4].

ويمكن القول ان الاستعارة البليغة التي يشير إليها هي اعلى درجات الاستعارة، إذ اننا نلمح فيها معنى مشتركا بين الطرفين، وكلما كان هذا المعنى خفيا ويحتاج الى تامل لادراكه كانت الاستعارة ابلغ، ولكن دون الوصول الى الغموض والتعقيد وهو ماكده عبد القاهر

(1) =: اسرار البلاغة / 365 وما بعدها.
(2) =: نهاية الإيجاز /115.
(3) ر / 86.
(4) ر /86.

جرجاني[1]. والاستعارة حسنة تي أشار إيها لاتختلف عن بليغة وهي تي توجب بيان لاتنوب منابه حقيقة إذ ((تتميز بزيادة بيان وهذا بيان لاوجود ه عند تعبير ب حقيقة، و و كانت الاستعارة تؤدي نفس معنى ذي تؤديه حقيقة ي س ها فضل بيان عليها كان تعبير ب حقيقة اجدى))[2]، وهو ما أكده عبد قاهر جرجاني أيضاً[3]. فهو ابداع لابد ان نسجله لرماني إذ اراد بقو ه (لابد من بيان لايفهم ب حقيقة) الإشارة ى ما حول حقيقة من الاحوال و هواجس تي تحققها الاستعارة و تي لاتؤديها حقيقة ذ ك نجده خلا ل تعليقه على شواهد يوكد على فارق بين حقيقة لفظ مستعار وابلغية الاستعارة فيه، وهو مع ذ ك لايغفل عن ان تعبير ب حقيقة احيانا يكون ابلغ من الاستعارة، و ذ ك في قو ه: ((و ذ ك ان ه و كانت تقوم مقامة حقيقة، كانت او ى به، و م تجز الاستعارة))[4] وهو راي ينسجم مع واقع تماما، فالاستعارة في قو ه تعا ى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [5] جاءت بليغة متلائمة مع السياق أو النظم الذي وردت فيه، لاسيما لفظه (تومر)، في حين ان التعبير القرآني استخدم لفظ الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[6] فكان لكل من الاستعارة والحقيقة مكان من البلاغة لاتسد مسد الاخرى، وحين يؤكد الرماني لى ابليغة الاستعارة فانه يدرك تماما ان ((التعبير بالحقيقة يفيد العلم، والتعبير بلوازم الشي الذي هو المجاز لايفيد العلم بالتمام، فيحصل دغدغة نفسانية، فكان المجاز اكد وألطف))[7].

ويؤكد الرماني في اكثر من موضع لى ابليغة اللفظ المستعار وتاثيره من خلال بيان حقيقته محاولا من خلال ذلك اظهار التألف والارتباط والتفا ل الحاصل بين الالفاظ في السياق من جهة، وبينها وبين المعاني من جهة اخرى لانه يدرك ان ((ارفع انواع الاستعارة ما تبادل طرفاها التاثر والتاثير لخلق معنى جديد ينتج ن التفا ل بينهما))[8]، وهذا ماذهب إليه بد القاهر الجرجاني في ان الإ جاز لايكون باللفظ المستعار وانما هو في النظم والتأليف[9].

(1) =: دلائل الإ جاز / 397.
(2) اثر النحاة في البحث البلاغي /254.
(3) =: دلائل الإ جاز / 384 - 385.
(4) ر / 86.
(5) سورة الحجر: من 94.
(6) سورة المائدة: من 67.
(7) فن الاستعارة / 339، و =: المزهر: 361/1.
(8) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي /224.
(9) =: دلائل الإ جاز /357.

لذلك كانت موازنة الرماني بين اللفظ المستعار وحقيقته تمثل جانبا مهما من جوانب الكشف □ن جماليات الاستعارة لأن في ذلك محاولة لتفهم التفا□لات والتنظيمات الداخلية للالفاظ والمعاني.

وقد نقل الحاتمي ماذكره الرماني □ن الاستعارة والحقيقة إذ قال ((والاستعارة إذا لم يكن موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة لم تكن استعارة..... وكل استعارة لطيفة توجب بلاغة بيان بالحقيقة غير نائبة منابها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت الحقيقة اولى بها من الاستعارة[1].

وفي ضوء ما تقدم بدا جليا ان الرماني لم يذكر شيئا □ن اقسام الاستعارة التي □رفت بتسمياتها الكثيرة والمختلفة فيما بعد، فقد كان هذا العلم غضا في□هد الرماني، لكن ما ذكره - لاسيما الشواهد -وتعليقاته □ليها كان اساسا لمن جاء بعده من البلاغيين في بناء اقسام الاستعارة وفرو□ها.

شواهد الاستعارة عند الرماني:

لقد لاحظ الرماني ان الصور الاستعارية غالبا ماتاتي للتعبير □ن المدركات الحسية بمثلها أو العقلية بمثلها أو الحسية بالعقلية أو العقلية بالحسية، فهذه الاوجه الاربعة يندرج تحتها ما اورده الرماني من الشواهد، كما انه ادرك ان قوة تصوير المعاني في الاستعارة القرآنية غالبا ما تعتمد □لى التصوير الحسي المعتمد □لى انواع الحس[2] من (بصرية وسمعية وذوقية ولمسية) وان ذلك مما يزيد المعاني قوة وادراكا لها لاسيما الخفية منها وغير المعهودة للناس، وقد كان هذا منهجه في اقسام التشبيه أيضاً،وهو بهذا قد فتّ بابا من ابواب بحث الاستعارة، ولم يغفل البلاغيون بعده ذلك لاسيما □بد القاهر الجرجاني[3]. فضلا □ن انه ذكر شواهد اخرى يمكن وصفها بالصور الشعورية، والتي تعبر فيها الاستعارة □ن الفرح أو الحزن أو الندم أو التكبر والطغيان.

وفي ضوء ذلك، □تمد الكتاب توزيع شواهد الاستعارة□نده - بشكل□ام -□لى اربعة اوجه:

1- **استعارة المحسوس للمحسوس.**

2- **استعارة المعقول للمعقول.**

---

(1) الرسالة الموضحة، للحاتمي /69 - 92.
(2) =: ر /91 و 92 و 93.
(3) =: اسرار البلاغة / 74.

3- **استعارة المحسوس للمعقول.**

4- **استعارة المعقول للمحسوس.**

وكان توزيع الشواهد داخل هذه الاوجة الاربعة - باعتماد مبدا الانتقاء -الى انواع الصور بحسب الحواس: (البصرية والسمعية والذوقية واللمسية) فضلا عن الصورة الشعورية التي اشرنا إليها والتي لاتندرج تحت انواع الحواس.

واعتمد الكتاب في التحليل -بغية الإيجاز - لكل من الصورة البصرية والصورة السمعية شاهدين، ولكل من الصور الاخرى شاهدا واحدا، ذلك ان الصورة البصرية والصورة السمعية كانتا اكثر الصور. ولاشك ان طبيعة الشواهد التي اوردها الرماني هي التي فرضت هذا التقسيم، فضلا عن انه يمثل جانبا من وحدة المنهج التحليلي في هذا الفصل لاسيما وان التقسيم ذاته قد اعتمد في مبحث التشبيه، ولم يكن الكتاب ليوزع الشواهد حسب انواع الاستعارة التي عرفت بعد الرماني، ولكنه لم يغفل الإشارة الى هذه الانواع في التحليل دون الاكثار من التقسيمات والمصطلحات المتشعبة ايمانا بان كثرة التقسيمات والمصطلحات ليست الامجرد احصاء لايتصل بفنية الاداء اللغوي، وان ((تقسيم الاستعارة الى هذه الاقسام الكثيرة لافائدة فيه ولاتجدي معرفتها كثيرا في تعلم البلاغة واتقانها... فتقليل المصطلحات والتقسيمات لايوثر في تذوق الاستعارة وادراك ما فيها من جمال وتفهم ماترمي إليه من معان لها تاثيرها في النفوس))[1]، فضلا عن ان تقنين حسن الاستعارة امر من الصعب تحديده بشكل مستوفى لأن المسائل الجمالية لاتعطي مقادتها عطاء مطلقا للقواعد والقوانين ولكن يبقى من المهم التعرف عليها ومدى الاصابة فيها[2].

اولا: الصورة البصرية:

ذكر الرماني عدة شواهد تندرج تحت الصورة البصرية، أشار إليها بعبارات مختلفة منها ((وقوع الحاسة عليه))[3] و((الاحالة على مايتصور))[4] و ((لما فيها من البيان بما يحس ويتصور))[5] و ((الاحالة على ادراك البصر))[6] و ((الاخراج الى مايدرك بالابصار))[1].

(1) البلاغة عند السكاكي / 329 - 330.
(2) =: التصوير البياني، محمد ابو موسى / 323.
(3) ر / 90.
(4) ر / 91.
(5) ر / 91.
(6) ر / 92.

- فمن شواهد الصورة البصرية قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [2] ، وهي من استعارة المحسوس للمعقول، ويبدا الرماني بشرح الاستعارة التي تضمنتها الآية، وترتسم في اولى تحليلاته خطوات منهجه في التعامل مع الصور الاستعارية، إذ يعمد اولا الى بيان حقيقة اللفظ المستعار والموازنة بين المعنيين وبيان ابلغية الاستعارة، يقول: ((حقيقة قدمنا هنا عمدنا وقدمنا ابلغ منه لانه يدل على انه عاملهم معاملة القادم من سفر لانه عاملهم من اجل امهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فراهم على خلاف ما امرهم))[3]، ثم يبين الرماني غرض الاستعارة وفائدتها في هذه الآية بقوله: ((وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال))[4]، ويبين بعد ذلك، المعنى المشترك بين الطرفين بقوله: ((والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد الى ابطال الفاسد عدل، والقدوم ابلغ لما بيـنا))[5]، ولايغفل الرماني الحديث عن سياق الآية وما تضمنته من تشبيه بليغ إذ يقول: ((واما هباء منثورا فبيان قد اخرج مالاتقع عليه الحاسة الى ماتقع عليه الحاسة))[6] وهو في ذلك يؤكد على اهمية التجسيم[7] في مساعدة الصورة على اداء دورها في التأثير والتاثر.

ولنتامل الاستعارة في الآية والفاظ سياقها الذي وردت فيه: لنستشف جانبا من بلاغتها، فالقدوم المستعار قد اوضح الرماني حقيقته، وذكر القرطبي عن مجاهد انه قال أيضاً: ((قدمنا أي عمدنا))[8].

لقد جاءت الآية في سياق االحديث عن يوم القيامة وحال الكافرين فيه، فكانت الاستعارة تنبيها على عظم يوم القيامة[9] ، لأن القدوم قد تضمن معنى القصد، ذلك ان ((القادم الى الشي قاصد له فالقصد هو المؤثر في المقدوم إليه))[10] وقيل انه قدوم الملائكة

(1) ر / 92.
(2) سورة الفرقان: 23.
(3) ر / 86.
(4) ر / 86.
(5) ر / 86.
(6) ر / 86 - 87.
(7) التجسيم: (تجسيم المعنويات المجردة وابرازها اجساما أو محسوسات على العموم..) التصوير الفني في القرآن / 61.
(8) الجامع لاحكام القرآن: 21/13.
(9) =: م ن: 13 /21.
(10) التفسير الكبير: 24 /73.

اسند الى الله على سبيل التوسع[1]، وقد علل الرماني ابلغية الاستعارة لأن القادم على شي مكروه -بعد امهاله لهم -لم يقرره ولاامر به فهو مغير له ومذهب،وقد حققت الاستعارة غرضها في التحذير من الاغترار بالامهال فقد جاءت (قدمنا) بصيغة الماضبي للدلالة على تحقق الوقوع وأنه قريب مهما كان الامهال طويلا، ثم الحرف (الى) والذي يفيد انتهاء الغاية[2] قد اكمل دلالة القدوم على غايته وهي القصد لهذه الاعمال واصحابها، وقوله:(الى ماعملوا من عمل) أي ((الاعمال التي اعتقدوها برا، والمعنى الى ماعملوا من أي عمل كان))[3]، فالحرف (من) جاء مميزا لمبهم العمل شاملا له لانه يدل على التنصيص على العموم[4] لاسيما مجيئه قبل (عمل) بصيغة النكرة التي تفيد ارادة النوع وهو عمل الخير[5]. الخير[5]. وهذه الاعمال لاتزن شيئا إذ لا اخلاص فيها لله تعالى، وقوله (فجعلناه) بهذه الفاء المرتبة التي تدل على ان الثاني بعد الاول بلا مهلة[6] دليل على ان القدوم كان مقترنا بالقصد الى الاعمال ومن اجله أيضاً.

ثم قوله (هباء منثورا)، هذه الاعمال التي ظنوا انها نافعتهم لن يجدوا لها نفعا فهي (هباء) ((وهو الذي يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء فيكون شبه عمود ممتد من الكوة الى حيث يقع ضوء الشمس من الارض، وفيه اجزاء لطيفة متفاوتة تحس بالنظر دون اللمس))[7]، وقد اظهرت الصورة المعنى العقلي وهو(اعمال الكافرين) مجسدا يحس بالنظر، ونلحظ في هذه الصورة لطائف تدل على روعتها ، من ذلك صغر الحجم وخفة الوزن، فهذا الهباء يتطاير في الهواء وفي ذلك إيحاء بان اعمالهم لاتزن شيئا في ذلك اليوم، ثم ان جزئيات هذا الهباء لاتنكشف إلاّ بسقوط ضوء الشمس عليها من كوة يحيطها الظلام، وفي ذلك إيحاء بالظلام الذي كانوا فيه، وبانهم كانوا يفعلونها دون ايمان ولاابتغاء مرضاة الله، وكانوا يخفون في صدورهم حقيقة اشراكهم، فالله تعالى بين لهم ان مايخفونه سينكشف مهما كان حوله من الظلام، وسيكون مرئيا مميزا كهذا الهباء.

(1) =: المحرر الوجيز: 26/11، التفسير الكبير: 24 / 73، الجامع لاحكام القرآن: 22/13.
(2) =: كتاب معاني الحروف / 115.
(3) التفسير الكبير: 24 /73.
(4) =: الجنى الداني / 320.
(5) =: التحرير والتنوير: 19 /8.
(6) =: كتاب معاني الحروف / 43.
(7) صبح الاعشى: 185/2، و =: ل: 351/15.

والصفة الاخرى ان هذا الهباء لايحس إلاّ بالنظر، وان جزئياته تظهر مجتمعة كانها عمودا ممتد من الكوة مع الضوء، أي انها تجمع وترى ولايذهب أو يتفلت منها شيء ومع ذلك فهي لاتزن شيئا، وقد تكون لطيفة وجميلة المنظر، وفي ذلك إيحاء لاعمال هؤلاء التي يفعلونها مراءات للناس وحبا للمظاهر فتبدو لطيفة جميلة كهذا الهباء، كما انها لااهمية لها ولفاعليها عند الله تعالى كما لا اهمية لهذا الهباء، فضلا عن صيغة التنكير التي وردت فيها لفظة (هباء) والتي تفيد التقليل والتحقير معا[1] وقد وصف الهباء هنا بـ (المنثور) في حين انه وصف في اية اخرى بـ (المنبث) في قوله تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [2] إذ يتناسب كلا الوصفين مع ماوردا فيه، فالصورة في الاولى تضمنت تشبيه المعقول بالمحسوس، وهو (اعمال الكافرين)، وفي الثانية تشبيه المحسوس بالمحسوس وهو (الجبال)، ولكن وصف الهباء بالمنثور ناسب غرض التصوير وغايته، فالشي المنثور يمكن ان يحس، ودلالة اللفظة ووقعها في النفس يوحي بذلك، أمّا المنبث فيكون للشي الذي لايحس أو يكاد، ولذلك يقال: بث الخبر وانبث السر وابثه أي انتشر[3]، ((والمنبث ارق وادق من المنثور لأن المنثور يقتضي ان غيره نثره كسنابك الخيل أو الرياح أو هدم حائط والمنبث كانه انبث من رقته))[4] لذلك جاء مع تصوير الجبال للدلالة على القدرة العظيمة لله تعالى.

لقد استجمعت هذه الصورة القرآنية في ذهن الرماني فاوحى إليه لفظ (قدمنا) بمعان كشف من خلالها عن خبايا التعبير القرآني في هذه الاستعارة، لاسيما في بعث الخيال واثارته للربط بين المعنى الاول والمعنى المستعار، فتحدث عن صورة المسافر الغائب الذي قدم فراى القوم على خلاف ماامرهم به فيجازيهم الجزاء العدل وحين يقول الرماني (الاستعارة ابلغ) فهو يشير الى الاثر النفسي للاستعارة وانها اسرع بلوغا الى النفس، ولايترك ذلك بل يعلله.

ولا نجد فيما ذكره الرماني عن الآية ارتباطا للاستعارة بغاية التاويل عنده - كما ذهب الى ذلك الدكتور نصر حامد ابو زيد - إذ يرى ان الرماني في حديثه عن هذه الآية ((يريد ان ينفي عن الله الحركة والانتقال فلذلك ما حاول الكشف عن اصل النقل في الفعل

(1) =: لغة القرآن الكريم / 341.
(2) سورة الواقعة: 5-6.
(3) =: تاج اللغة وصحاح العربية: 273/1 مادة (بثث).
(4) المحرر الوجيز: 27/11، و =: ل: 351/15.

(قدم) وانه بمعنى العمد، غير انه يكتفي بالقول بان القدوم ابلغ))[1]، والحق ان الرماني ذكر حقيقة (قدمنا) بانها (عمدنا) ثم ذكر انه ((عاملهم معاملة القادم من سفر.... ثم قدم فراهم على خلاف ما امرهم))[2]، اليس في كل ذلك بيان لحقيقة الفعل (قدم)؟ ثم ان ما ذكره الرماني عن الفعل لايختلف عما اورده المفسرون - كما اوضحنا- لاسيما ماذكره القرطبي عن مجاهد، ولو كان الرماني يريد ربط الاستعارة بغاية التاويل لصرح بذلك مثلما صرح الزمخشري حيث قال: ((ليس هاهنا قدوم ولا ما يشبه القدوم))[3].

ان ما اوحت به الصورة الاستعارية في الآية وعبر عنه الرماني بما ذكره يجلي اولى خصائص الاستعارة القرآنية وهي حسن التصوير لاسيما في اللفظ المستعار (قدمنا) واسناده الى الله تعالى متضمنا معنى القصد الى الغاية التي كان من اجلها القدوم، ثم في اظهار اعمال الكافرين وتصويرها بالهباء المنثور، فتحقق الاستعارة غرضها الذي أشار إليه الرماني وهو التحذير من الاغترار بالامهال، فاي تحذير اشد من ان يكون القادم الى العباد واعمالهم رب العباد، واي تحذير اشد من ان تكون اعمال الخير التي لاتقترن بالنية الصادقة أو الايمان، هباء منثورا، في كل ذلك يكمن حسن التصوير الذي يوحي للخيال ما يوحيه، ويثيره ليستحضر عظمه ذلك اليوم واهواله، فلعل النفس تنتفع بعد التامل والتدبر.

- ومن شواهد الصورة البصرية عند الرماني قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[4]، وهي استعارة محسوس لمحسوس، يقول الرماني: ((نسلخ مستعار، وحقيقته يخرج منه النهار، والاستعار ابلغ لأن السلخ اخراج الشيء ممالابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به، فكذلك قياس الليل))[5]. فالتشبيه المضمر في الاستعارة هو تشبيه زوال النهار عن الليل وبقاء الليل شبه الجسم المسلوخ عنه جلده، لذا عدت الاستعارة اصلية[6]، وقد جاءت الاستعارة في سياق اثبات وجود الله تعالى من خلال ذكر (الليل والنهار)، هذا الدليل الساطع الذي الذي يتجلى للابصار في كل يوم يعبر عن قدرة الخالق

(1) الاتجاه العقلي في التفسير / 121.
(2) ر / 86.
(3) الكشاف: 3 / 88.
(4) سورة يس: 37.
(5) ر / 89.
(6) وهي (ان يكون المستعار اسم جنس كرجل وقيام وقعود، ووجه كونها اصلية ان الاستعارة مبناها على تشبيه المستعار له بالمستعار منه) مفتاح العلوم /179.

العظيم في نظام الكون المحكم الدقيق، فقوله (اية لهم) أي علامة دالة على قدرته تعالى ووجوب الاهيته وتوحيده، وحقيقة السلخ كشط الجلد ونزعه أو اخراجه فاستعير لازالة الضوء ومجيء الظلمة[1]. وتتجلى دقة التعبير القرآني في اختيار الاستعارة (نسلخ) وتلاؤمها مع الحقيقة الكونية لهذه العملية ((فالارض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس، فاذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الارض وانزوت تلك النفطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكانما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام، فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية ادق تصوير))[2]. وقد أشار الرماني إلى جزء من إيحاء هذه الاستعارة بالقدرة العظيمة للخالق، حين قال ((والاستعارة ابلغ لأن السلخ اخراج الشئ مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به))[3]، ادراكا منه ان الاستعارة جاءت وسيلة لتقريب هذا المعنى وتجسيده بالصورة الحسية القريبة، فضلا عما يتضمنه السلخ من إيحاء بالقوة والقدرة غير المتناهية لله تعالى، وليس ذلك فحسب، فلهذه الاستعارة ((ايحاءات اضافية دالة على قدرة الله في احياء الموتى فالسلخ يعني الموت واقترانه بظاهرتي (الليل والنهار) يوحي بقدرته تعالى على ان يبدع الحياة وينشئها بعد الموت والفناء، كما تدل صورة (الليل والنهار) على التجدد والاستمرار بعد السلخ بهذا التعاقب الدائب الذي يتيح للمتلقي عمق التخيل والتصور على القدرة الالهية المهيمنة على كل شيء))[4].

لقد جلت الاستعارة في هذه الآية خصيصة اخرى من خصائص الاستعارة القرآنية تمثلت في (الجدة)[5]، وهي قدرة الاستعارة على ان تظهر الصورة جديدة في الابصار والاذهان فيحدث بذلك اثرها في النفس[6]. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك أيضاً[7]، أيضاً[7]، فضلا عن انها تمثل وسيلة من وسائل الربط بين الطبيعة والفكر بدعوته إلى التدبر

(1) =: الكشاف: 322/3 والتفسير الكبير: 70/26.
(2) في ظلال القرآن : 24/7.
(3) ر / 89.
(4) الاستعارة في القرآن الكريم /228.
(5) =: البلاغة فنونها وافنانها /234.
(6) =: فن الاستعارة /328.
(7) =: اسرار البلاغة /50.

التدبر في نظام الكون والقدرة المسيطرة عليه، من خلال التصوير الحسي المدرك بحاسة البصر، والقريب المتكرر في كل حين.

ثانيا: الصورة السمعية:

- من شواهدها عند الرماني قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [1] وهي من استعارة المعقول للمعقول[2]، يقول الرماني: ((وحقيقته انتفاء الغضب، والاستعارة ابلغ لانه انتفى انتفاء مراصد بالعودة، فهو كالسكوت على مراصدة الكلام بما توجبه الحكمة في الحال، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره، والمعنى الجامع بينهما الامساك عما يكره))[3].

نستشف شيئا من بلاغة الاستعارة بما حققته من التشخيص والذي يتمثل - في الغالب - ((في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية.... وتهب لهذه الاشياء كلها عواطف آدمية وخلجات انسانية تشارك بها الادميين))[4].

والاستعارة في الآية تشخص الغضب وهو انفعال وجداني وتصوره كأنه كائن حي هائج مسلط على موسى عليه السلام ومسيطر عليه يدفعه ويحثه على ما فعل[5]، وفي ذلك يقول الزمخشري: ((كان الغضب كان يغريه على مافعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الالواح وجر برأس اخيك، فترك النطق بذلك وقطع الاغراء))[6].

وفي ضوء ذلك نجد الاستعارة قد بنيت على التشبيه المضمر للغضب بكائن حي، ثم حذف ودل عليه الرادف المتمثل (بالسكوت) على سبيل الاستعارة المكنية.

ولهذه الاستعارة مزية بما تحققه من تأثير عن طريق التشخيص، لأن الغضب لايتكلم فيوصف بالسكوت، ففي استعارة السكوت تصوير للمعنى وتمثيل للنفس لانجده في غيره من الالفاظ من مثل لفظة (سكن) التي ذكرها الفراء[7]، أو (خمد) التي ذكرها ابن عطية[8]، إذ

(1) سورة الاعراف: من 154.
(2) =: معجم المصطلحات البلاغية:172/1.
(3) ر /87-88.
(4) التصوير الفني في القرآن /61.
(5) =: من بلاغة القرآن /221.
(6) الكشاف: 120/2.
(7) =: معاني القرآن: 156/2.
(8) =: المحرر الوجيز:92/6.

يفقد التعبير بها طرفا من ذلك التأثير وتلك الروعة التي يحققها التشخيص في استعارة (سكت).

وقد أشار الرماني إلى جانب لم يلتفت إليه المفسرون، يتعلق بدقة اختيار اللفظ المستعار، فالسكوت يكون وقتيا وليس دائميا، فكيف إذا كان السكوت في ساعة غضب وانفعال على امر يتعلق بجانب التوحيد والعبادة، فلاشك ان ذلك دليل على الحلم الذي وهبه الله للمرسلين، فانتفاء الغضب في تلك الساعة كالسكوت، وقد حقق انتفاء الغضب الامساك عما يكره فعله وفي ذلك تفصح الاستعارة عن طريق (الإبانة) عن المعنى المشترك بين الطرفين وبذلك تتجلى خصيصة اخرى من خصائص الاستعارة القرآنية وهي (الايضاح) أو (الإبانة)، وقد أكّد الجرجاني أيضاً على هذا الغرض في اكثر من موضع[1]، وهذا الايضاح لا يقتصر فقط على اظهار المعنى والكشف عنه بل هو ((تاكيد المعنى والابانة عنه وجمالية الصورة التي تؤدي المعنى))[2]، كل ذلك واكثر منه تؤديه الاستعارة القرآنية في هذه الآية.

- ومن شواهد الصورة السمعية عند الرماني قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ ﴾[3]، والاستعارة هنا استعارة معقول لمحسوس[4].

يقول الرماني: ((شهيقا حقيقته صوتا فظيعا كشهيق الباكي، والاستعارة ابلغ منه واوجز والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت. (تميز من الغيظ) حقيقته من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة ابلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس، مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذلك اعظم الزجر واكبر الوعظ وادل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة))[5].

هاهي جهنم التي كذب بها الكافرون، شاخصة امامهم بهيئة تثير الهلع والرعب، يصورها التعبير القرآني باسلوب التشخيص كائنا مرعبا قد امتلأ غيظا، يسمع له شهيق

(1) =: اسرار البلاغة /32،33،50.
(2) الاستعارة في القرآن الكريم:63.
(3) سورة الملك: 7-8.
(4) =: معجم المصطلحات البلاغية:171/1.
(5) ر / 87.

وزفير على سبيل الاستعارة المكنية، وقد أشار الرماني إلى الصورة الاخرى لجهنم في قوله تعالى:

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [1] وكأنه يدعو إلى تدبر الصورتين، والتأمل في عمق الاستعارة القرآنية وتأثيرها ملمحا إلى الفرق بين الآيتين.

فالسمع في كلتا الآيتين واحد، والنار واحدة، إلاّ ان الرماني لاحظ الفرق، ففي الاولى (إذا القو فيها) وفي الثانية (إذا رأتهم من مكان بعيد)، ولذلك فهو يركز على ما يقابل هذا الملمح الدقيق، فيذكر في الاولى (الشهيق) ليشير من خلاله إلى ما في النار من صراخ واختلاط وخوف وصياح وغضب، فلم يقل (شهيق الفحل أو شهيق الغاضب) كما قال الزمخشري[2]، وانما قال (شهيق الباكي) محاولا بذلك استحضار حال القوم حين ألقوا فيها، ذلك ان الشهيق ترديد البكاء في الصدر[3]، إذ يكون مسموعا، فضلا عن تناسب (الشهيق) مع القاء الكافرين في جهنم، لأن الشهيق هو رد النفس وابتلاعه[4] فهو شبيه بحال ابتلاعها لهم، فهم هواؤها وحطبها الذي اشتاقت إليه، ويشير الرماني إلى (قبح الصوت) الذي يجمع الطرفين أيضاً (المستعار له والمستعار منه) ذلك ان شهيق الحمار هو نهيقه[5]. ويؤكد بان الاستعارة ابلغ من الحقيقة أي اسرع بلوغا إلى النفس وتأثيرا، و (اوجز) وفي ذلك إشارة إلى احدى خصائص الاستعارة القرآنية وهي الإيجاز، وهو ما عبر عنه الجرجاني بالقول ((انها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من الالفاظ))[6]، وهو ما عرف عند بعض المحدثين بـ(التكثيف)[7].

أمّا (الزفير) في الآية الاخرى فهو اخراج النفس وارساله[8] بكل ما فيه من الحرارة والغيظ لاستقبالهم كما عبر عن ذلك الرماني بالقول ((تستقبلهم للايقاع بهم استقبال مغتاظ يزفر غيظا عليهم))[9]، فكأنها تفرغ ما في صدرها من الهواء لتتهيأ لابتلاعهم بشهيقها، ولا

(1) سورة الفرقان: 12.
(2) =: الكشاف:136/4.
(3) =: ل: 191/10 مادة (شهق).
(4) =: ل: 191/10 مادة (شهق).
(5) =: ل: 191/10 مادة (شهق).
(6) اسرار البلاغة /50، 275.
(7) =: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي /254.
(8) =: ل: 191/10 مادة (شهق).
(9) ر /87.

ولا يذهب زفيرها سدى بل يستقبلهم بما فيه من الغيظ الملتهب، فضلا عن تناسب الزفير مع رؤيتهم من بعيد، وفي هذا االبعد مع زفير اللهب المستقبل لهم، زيادة في العذاب قبل الوصول إليها. ولا يفوت الرماني ان يشير إلى الاستعارة الاخرى (تميز من الغيظ) وهو بذلك يشير إلى ملمح آخر في الربط بين الآيتين وهو انها حين رأتهم (سمعوا لها تغيظا) وحين ألقوا فيها (تكاد تميز من الغيظ) وتكاد تتقطع وتنفجر من شدة ما فيها من لهيب واستعار.

وقد ابدع الرماني في اظهار الاثر النفسي للاستعارة القرآنية في هذه الآيات ادراكا منه ان وظيفة الاسلوب التشخيصي في الاستعارة المكنية ((التأثير في نفس المتلقي واثارة انفعاله المناسب))[1]، والاثر النفسي الذي يشير الرماني إليه يتوزع على جانبين:

الاول: يتعلق بما في الصورة الاستعارية من احاسيس ومشاعر مختلفة.

الثاني: يتعلق باثر الاستعارة في المتلقي وما تثيره في نفسه من مشاعر، فضلا عما تحققه في المتلقي من اهداف وغايات بنيت من اجلها.

ويتمثل الجانب الاول بقوله: ((فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل))[2].

ويتمثل الجانب الثاني بقوله: ((وفي ذلك اعظم الزجر واكبر الوعظ وادل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة))[3]. فلم يكن التصوير الاستعاري للتزيين والتجميل أو للمبالغة فحسب، وانما الهدف تحقيق الزجر والانتهاء عما يوصل النفس الانسانية إلى هول ذلك الموقف، والتفكر في القدرة العظيمة للخالق، ولا شك ((ان التأثير النفسي قد تصاعد أيضاً بالالفاظ الاستعارية، فهي الفاظ مصورة لمعانيها بجرسها.... لذلك فان هذه الالفاظ الاستعارية المسموعة هي كالصور وكأنها شاخصة امام العين))[4]، فضلا عن ان الرماني قد اظهر الاثر النفسي المشترك بين المستعار منه والمستعارله وذلك بقوله: ((لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام))[5]، فالصورة في

(1) الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية /177.
(2) ر / 87.
(3) ر /87.
(4) الاستعارة في القرآن الكريم /284.
(5) ر/87.

في كلتا الآيتين، صورة متحركة متلونة، شخص الجماد فيها ناطقا يغتاظ بل يكاد يتمزق من شدة الغيظ يريد ان يشفي غليله، فسيتقبلهم من بعيد ثم يبتلعهم بشهيق ممتزج بشتى الاصوات، يا لها من صورة مفزعة تملئ النفس خوفا ورعبا، ذلك هو أسلوب الترهيب القرآني، فيه (اعظم الزجر واكبر الوعظ)، وفيه لمن تدبر وتفكر اعظم (دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة).

وثمة ملمح آخر يتمثل بالتلاؤم الذي تميز به التعبير القرآني في الفاظ هذه الآيات ومعانيها، فالكلمات المختارة في ((صورة جهنم شديدة الايحاء بمعناها وكأن المعنى يصور بالالفاظ (شهيقا وهي تفور) و (تكاد تميز من الغيظ)، فحروف هذه الكلمات بموسيقاها تصور المعنى تصوير دقيقا لجهنم وهي مغتاظة غاضبة))[1]، لاسيما ان هذه الالفاظ جاءت اساسا لاسلوب التشخيص بوصفه ((طريقة من طرق التصوير، ترد الصورة حية، وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية اوقع في الحس واجمل في النفس))[2].

فها هي جهنم لها شهيق وزفير، وهي ممتلئة بمشاعر الغيظ الذي وصف بانه يسمع، ((والتغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت.... والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ))[3]، ولا شك ان في وصف الغيظ بانه مسموع دلالة على شدته ويحقق ذلك شدة في الفزع اكثر مما يحققه التعبير بالتشبيه. وتوحي الالفاظ الاستعارية بصيغها التي جاءت عليها بدلالات اخرى، فتنكير لفظة (شهيقا) له إيحاء بتعظيم هذا الشهيق وكثرته وامتلائه بالشهوة الممتزجة بالغيظ لابتلاع الكافرين، هذا الشهيق المتجدد والمستمر بذكر وصف النار(وهي تفور).

ولفظة (تميز) بهذه الياء المشددة في وسطه يوحي بالانفجار الذي يكاد يحدثه الغيظ الذي بداخلها. وثمة ملمح آخر، وهو ان الآية الاولى ذكر فيها (الغيظ) والثانية ذكر فيها (التغيظ)، ويدخل ذلك في التناسب أيضاً، فالنار في الاولى قد ألقي فيها الكافرون فهي مغتاظة إلى حد التميز وهي تفور، أمّا في الثانية فانها رأتهم من مكان بعيد مما يستلزم تكلف الفعل، فصيغة (التفعل) جاءت مناسبة للحال لأن المتكلف لفعل يأتي به كأشد ما

(1) في سورة الملك، دراسة بلاغية /315، احمد فتحي رمضان، اداب الرافدين، العدد 24، سنة1992.
(2) مشاهد القيامة في القرآن /177.
(3) التفسير الكبير: 56/24.

يكون[1]، وفي ذلك إيحاء بشدة تلهفها لعذابهم، وقد وصفت الرؤية وازجاؤهم إلى النار (من بعيد) ((زيادة في النكاية بهم لأن بعد المكان يقتضي زيادة المشقة إلى الوصول، ويقتضي طول الرعب مما سمعوا))[2].

وفي ضوء ذلك تتجلى خصيصة اخرى للاستعارة القرآنية وهي تشخيص المجردات وتجسيم المعنويات حتى تصبح شاخصة امام العين[3]، وبذلك تؤدي الاستعارة وظيفتها التأثيرية أداءً لا تؤديه الحقيقة أو التشبيه بدلا عنها.

ولابد من الإشارة إلى ان رؤية النار قد حملت على الاستعارة المكنية، وعلى المجاز العقلي أيضاً بان من رآهم ملائكتها[4]، وحملت على الحقيقة أيضاً[5].

(1) =: التحرير والتنوير:333/18.
(2) م ن: 133/18.
(3) =: التعبير البياني /128.
(4) =: التحرير والتنوير:133/18.
(5) =: المحرر الوجيز:11/11، والجامع لاحكام القرآن:8/13، والانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير الاسكندري: 83/3.

ثالثا: الصورة الذوقية:

- منها قوله تعالى: ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ [1]. وهي استعارة المحسوس للمعقول، يقول الرماني: ((وهذا مستعار، وحقيقته اجاعها الله واخافها، والاستعارة ابلغ، لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وماشبهه، وانما قيل ذاقوه لانه كما يجد الذائق مرارة الشي فهم في الاستمرار كتلك الشدة في المذاقة))[2].

لقد اظهر التصوير الاستعاري في الآية (الجوع والخوف) وهما معنويان، بمظهر حسي على شكل لباس يشمل اهل القرية ويلازمهم ملازمة الثوب للبدن، على سبيل الاستعارة التصريحية (لباس الجوع)، ولم يقل (طعم الجوع) لأن المراد بذلك ((وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم كاشتمال الملابس على الجلود،لأن مايظهر منهم عن مضيض الجوع واليم الجوف من سوء الاحوال وشحوب الالوان وضؤولة الاجسام كاللباس الشامل لهم والظاهر عليهم))[3].

ويركز الرماني على استعارة (الذوق) واثرها في تجلية المعنى وتأثيره في النفس، فالتعبير القرآني قد وظف هذه الحاسة في غير ماعرفت عنه لانها اضيفت إلى اللباس، ذلك انها اشد الحواس واقواها ادراكا في تذوق الاشياء عند الانسان، يقول الزمخشري ((أمّا الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس فيها، فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب))[4]، وكثيرا مايستخدم التعبير القرآني ذلك في التعبير عن تلك المعاني، منها قوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ [5].

ولا شك ان الإعجاز البلاغي في الاستعارة القرآنية هنا يتمثل في النظم العجيب الذي بنيت عليه لخفاء الشبه بين المستعار (اللباس) والمستعار له (الجوع والخوف)، وكذلك بناء استعارة (الذوق) على استعارة (اللباس)، وهكذا تتعدد الاستعارات في هذا النظم المصور لكل ماحل باهل القرية بايجاز دقيق، فالاستعارة الاولى التصريحية قد بنيت على اضمار تشبيه ما غشيهم من الجوع والخوف باللباس، والمعنى المشترك بينهما الاشتمال والملازمة.

(1) سورة النحل: من 112.
(2) ر / 90.
(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي /197.
(4) الكشاف: 431/2.
(5) سورة المائدة: من 95.

والاستعارة الثانية المكنية وقد بنيت على اضمار تشبيه ماغشيهم عند الجوع والخوف بالطعم المر، والمعنى المشترك بينهما الكراهة، فاستعير لفظ المشبه به ثم حذف وبقي شيء من لوازمه وهو (الاذاقة)، والاستعارة الثالثة التخييلية بنيت على اضمار تشبيه الاذاقة المتخيلة بالاذاقة المتحققة[1].

وفي ضوء ذلك نجد ان التعبير القرآني اثر (الذوق) هنا لأن الجوع يشعر به ويذاق، كما اثر ان يكون للجوع لباس، لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضنى والشحوب[2].

ان التدبر في سياق الآية يفصح عن شيء من بلاغة الاستعارة فيها لاسيما التامل في السياق الواردة فيه واستحضار حال القرية في تلك المحنة وذاك العذاب، فقد أصر المشركون على كفرهم على الرغم من تكرار الدعوة والانذار لهم من الرسول ﷺ[3]، ولما كان ان حل بهم عذاب الله (بالجوع والخوف) بعد عصيانهم بمدة غير طويلة، ناسب ذلك التعبير القرآني بفاء التعقيب (فأذاقها)، ايحاء بسرعة انزال العقوبة بالكافرين مهما يطل امهالهم، تلك هي النقلة السريعة التي تنقل خيال المتلقي من صورة العيش الرغيد الهاديء بالاطمئنان، إلى صورة الجوع والخوف وهو يطفئ نور الحياة لتكون هذه القرية عبرة لمثيلاتها على مدى الدهر.

ولما كانت استعارة (اللباس) تعبيرا عما شملهم واحاط بهم ولازمهم من الجوع والخوف، كان لابد من اظهار تمكن ذلك منهم واثره فيهم، فاستعيرت (الاذاقة) لبيان ان ما حل بهم قد استقر ((في ادراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس في الجوف والامعاء))[4].

واللطيفة الاخرى تكمن في التناسب بين ما سبق الاستعارة من ذكر (الامن والرزق) في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾[5]، وما عبرت عنه الاستعارة من (الجوع والخوف). فهذا التقابل يوحي باستحقاق هؤلاء لما حل

(1) =: إعجاز القرآن البياني /343، التصوير البياني، حفني محمد شرف /170.
(2) =: من بلاغة القرآن /220.
(3) فقد نزلت الآية في قومه (قريش) ابتداء.
(4) التحرير والتنوير: 307/14.
(5) سورة النحل: من 112.

بهم، ويوحي بانقلاب حالهم إلى اسوأ حال نتيجة لكفرهم وعصيانهم، وتلك عاقبة كل من اتصف بصفاتهم.

ومن ناحية اخرى يمكن القول ان استعارة (الاذاقة) و (اللباس) استعارتان تهكميتان، لأن غاية القرى والاكرام ان يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من ازار وبرد[1]، وما حقيقة ما حل بهم إلاّ الجوع والخوف الذي بلغ منهم كل مبلغ، واذا كان الرماني لم يشر إلى ذلك، فلأنه أشار إليه في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ [2]، إذ قال: ((حقيقته لنعذبنهم، والاستعارة ابلغ، لأن احساس الذائق اقوى لانه طالب لادراك ما يذوقه، ولانه جعل بدل احساس الطعام احساس الآلام، لأن الاسبق في الذوق ذوق الطعام))[3]، فهو يتحسس الاثر النفسي في طرفي الاستعارة ويكشف عنه.

ولا بد بعد ذلك من تدبر غاية الاستعارة في هذا المثل القرآني، فالعبرة والموعظة هي الفكرة الاساس لهذه الصورة الاستعارية، فقد جاءت الاستعارة لتسبغ على هذه الفكرة حياة وتزيدها عمقا لاجل التأثير في المتلقي[4]، فكانت هذه الصورة انذارا لكل من كانت هذه صفته من الامم في كل زمان ومكان.

وهكذا تتجلى خصيصة اخرى من خصائص الاستعارة القرآنية تمثلت في دقة اختيار الكلمات لتكون اجسادا لهذه الاستعارات[5]، فضلا عن تأديتها غرض الاستعارة الاساس في (الإبانة) عن المعنى ابانة تجلت فيه سمة الإيجاز والوضوح مع جمالية الصورة ودقتها، تلك هي (الإبانة) التي ذكرها الرماني في تعريفه للاستعارة، وهي ما أكّد عليها عبد القاهر الجرجاني أيضاً[6].

كما ان الاستعارة في هذه الآية قد اختصرت ما بين المعاني من مسافات، وجمعت ما ليس بينه رابطة من قبل[7]، كل ذلك لاظهار معنى خاص له تأثيره القويم في المتلقي، وتلك سمة اخرى من سمات الاستعارة القرآنية.

(1) =: التحرير والتنوير: 307/14.
(2) سورة السجدة: من 21.
(3) ر /93 - 94.
(4) =: الاستعارة في القرآن الكريم /238 - 239.
(5) البلاغة فنونها وفنانها /214.
(6) =: اسرار البلاغة /32 -33، 50.
(7) =: فن الاستعارة /223.

رابعا: الصورة اللمسية:

- منها قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[1]، وهي استعارة محسوس لمحسوس، يقول الرماني ((اللفظ هاهنا بالشوكة مستعار، وهو ابلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذي به تقع المخافة، واعتمد على الايماء إلى النكتة، واذا كان السلاح يشتمل على ماله حد وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى))[2].

تصور الآية دواخل نفوس الفئة المؤمنة التي كانت مع الرسول ﷺ قبل معركة بدر، ويعتمد التعبير القرآني في اظهار جانب من مشاعرهم وتمنيهم الظفر بالعير والغنائم وكراهة لقاء جيش المشركين الذي استعد للقائهم بعد ان علم بخروجهم للتعرض للقافلة، هذه المشاعر التي تكشف عن جانب مما تتصف به النفس البشرية من تردد وخوف على الرغم من صحة العقيدة وقوة الايمان، ذلك انها امام المواجهة، إذ لا خيار، فاما العير واما النفير، وقد ذهبت العير ولم يبق إلاّ المواجهة.

ويعمد التعبير القرآني في تصوير ما اراده المؤمنون إلى أسلوب الاستعارة وذكر ما يناسب السياق الذي وردت فيه الآية، وهو الحديث عن ملحمة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل، فلم يقل (وتودون العير) أو (وتودون الغنائم) وانما عمد إلى ذكر ما يعبر عن الخوف القابع بداخلهم، ففي ذكر الشوكة إيحاء بالالم والايذاء، بل هو إيحاء بكل ما في لقاء العدو من مشاعر واحاسيس، لاسيما وان اللفظة مستعارة، وهي واحدة الشوك، وقد عرفت عند العرب بالتعبير عن هذه المعاني على سبيل الاستعارة، فيقال: فلان ذو شوكة أي ذو بأس[3]، ومنها قوله شائك السلاح[4]، ولذلك فقد ذكر التعبير القرآني ما يناسب الخوف القابع القابع في نفوسهم، ولا شك ان التعبير بالحقيقة ما كان ليثير في النفس ما تثيره الاستعارة (الشوكة) من مشاعر الايذاء والالم، وقد برع الرماني في تجلية المعنى البلاغي لهذه الاستعارة، ((لأن ذكر الشوكة ينبئ عن انهم خافوا من اللقاء وطمعوا في الغنيمة، فالنكتة تكمن في الضعف النفسي أو التردد والخوف من الموت والتأهب للغنى، وينبئ أيضاً عن ان الفائدة في اللقاء، لأن القوة لا ترتدع إلا بالقوة حتى يعلو الحق، والآية جزء من صراع

(1) سورة الانفال: من 7.
(2) ر /89 - 90.
(3) =: التحرير والتنوير: 270/9.
(4) =: الكشاف: 144/2.

نفسي بين الموت والبقاء، وحب الغنيمة والخوف))[1]، لذلك أشار الرماني إلى احدى خصائص الاستعارة القرآنية والتي تتمثل هنا (بالايجاز) وقد عبر عنها بقوله ((الايماء إلى النكتة))[2].

ولهذه الاستعارة إيحاء آخر وهو التعبير عن البون الشاسع بين ما اراده الله تعالى للفئة المؤمنة وبين ما اراده المؤمنون لانفسهم على الرغم من كراهتهم لذلك.

لقد اراد الله تعالى ان تكون ملحمة لا غنيمة، وان يحق الحق ويبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين، فاين ما ارادته الفئة المؤمنة لنفسها مما اراده الله[3]؟

فلو كانت قصة غارة وغنيمة لذهبت وما كان لها ذكر واثر، ولكنها كانت كما ارداها الله، قصة عقيدة ونصر حاسم، وقصة اشراقة نور نصر المؤمنين بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة، واندحار المشركين أولي العدة والعدد، وكان درسا بليغا تتوارثه الاجيال، وتستمد منه العزم والقوة والامل كلما تحدث المجابهة بين جبهة الايمان وجبهة الكفر.

(1) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ /100.
(2) ر/89.
(3) =: في ظلال القرآن:813/3.

خامسا: الصورة الشعورية[1]:

- من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ [2]، وهي استعارة معقول لمعقول، يقول الرماني ((اصل الرقاد النوم، وحقيقته من مهلكنا، والاستعارة ابلغ لأن النوم اظهر من الموت، والاستيقاظ اظهر من الاحياء بعد المـــوت، لأن الانسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة وليس كذلك الموت والحياة))[3].

لقد جاءت الآية في سياق يعرض من الآيات التي يمر عليها الناس وهم غافلون، ويبدأ ذلك من الآية الحادية والثلاثين، إذ يذكر التعبير القرآني بهلاك القرون الاولى من الامم السابقة، وانهم سيبعثون يوم الحساب، ثم ذكر الآية الاخرى من آيات الله تعالى، وكأن السياق بكامله يصب في معنى واحد هو البعث والنشور، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾ [4]، وتأتي آية اخرى تذكر بنعم الله على العباد، وبقدرته العظيمة التي لو تفكر فيها الكافرون لما انكروا البعث، تلك هي آية الليل والنهار، والشمس والقمر وهذا النظام العجيب الذي بني عليه الكون دالا على قدرته تعالى.

ويذكرهم السياق بعد ذلك بنعمة اخرى﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ [5] والآيات كثيرة لكنهم معرضون ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ [6]، وعلى الرغم من ان هذه الآيات تذكرهم بقدرة الله تعالى على الاحياء والبعث إلاّ انهم يصرون على الكفر ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [7]؟

ويأتي الجواب على هذا السؤال بعرض مشهد من مشاهد يوم القيامة يصور حقيقة ما ينكرون، ويتميز هذا المشهد بالسرعة الخاطفة في تحققه، لانهم في سؤالهم قد عبروا عن تأخر هذا الوعد بل استحالته أو استبعاد تحققه ويتمثل جزء من هذه السرعة في قوله تعالى:

---

(1) لا تندرج هذه الصورة ضمن الصور المحسوسة بالحواس الخمس الاخرى، ولكنها تتعلق بمشاعر واحاسيس نفسية انسانية مختلفة قد تكون نتيجة لحاسة واحدة أو لاجتماع اكثر من حاسة كالفرح والحزن والندم وغير ذلك، لذا عمد البحث إلى الحاقها بالصور الاخرى مستندا إلى ما اورده الرماني من شواهد لها وتعليقاته عليها.

(2) سورة يس: من 52.

(3) ر/93.

(4) سورة يس: 33.

(5) س ن: 41.

(6) س ن: 46.

(7) س ن:48.

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [1]، وكذلك في ايثار التعبير القرآني استخدام صيغة الماضي ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ [2]، وكأن الساعة قد أتت ويوم الحساب قد حل، فالتعبير بصيغة الماضي عن المستقبل يدل على تحقق الوقوع وانه في حكم الواقع المنتهي. ويدخلهم التعبير القرآني مباشرة إلى هول ذلك اليوم، وذلك بعرض حالهم فيه، فهاهم - بعد خروجهم من الاجداث - ينطقون بدهشة وذعر، يتساءلون ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [3]؟ فقد تحقق الوعد الذي انكروه وعاندوا فيه، فجعلوا ينادون الويل ليحضر، انه النداء الممتزج بالرعب والدهشة والألم والندم، ويسألون - بعده - عن فاعل البعث بتعجب، لاسيما وان البعث عندهم قد كان محالا، فالافعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها[4]. فضلا فضلا عن إيحاء الصورة الشعورية بانقطاعهم - وهم في مرقدهم - عن كل انواع الحواس، مما يزيد من دهشتهم وتعجبهم.

وقد نطقوا - في سؤالهم عن الفاعل - بالبعث لانهم كانوا منكرين له من جهة، ولأن لفظ (البعث) في هذا السياق يؤدي المعنى تأدية كاملة تستمد قوتها من دلالته اللغوية، ذلك انهم يقولون:((بعثه من نومه بعثا فانبعث: أيقظه وأهبه، وتأويل البعث ازالة ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث))[5].

أمّا الاستعارة فقد جاءت لتحقق الغاية التي أثير من اجلها سؤالهم لو كانوا قد تفكروا في آيات الله تعالى التي ذكرها السياق، وتفكروا في انفسهم أيضاً، إذ يتكرر الرقاد (النوم) كل يوم، حيث يستقر الجسد في مرقده وكأن الله قد توفاه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾[6]، فالنوم من جنس الموت لذلك جعل التوفي فيهما والبعث سواء[7] ويستيقظ بعد ذلك، فكان لابد للتعبير عن الاحياء بعد الموت من استعارة (الرقاد) وهو المشهد المتكرر كل يوم لتحقق الاستعارة غايتها الاساس المتمثلة في (الإبانة). وقد آثر التعبير القرآني المصدر الميمي (مرقدنا) دون غيره، فلم يقل (رقادنا) أو (سباتنا) أو

(1) س ن: 49.
(2) س ن: من 51.
(3) سورة يس: من 52.
(4) =: التحرير والتنوير: 37/23.
(5) =: ل: 117/2 مادة (بعث).
(6) سورة الانعام: من 60.
(7) =: المفردات في غريب القرآن: 69/1.

(نومنا)، ذلك ان المصدر الميمي في الغالب يحمل معه عنصر الذات بخلاف المصدر غير الميمي فانه حدث مجرد من كل شيء، فضلا عن ان المصدر الميمي في كثير من التعبيرات يعني نهاية الامر أو منتهاه، فالاياب مثلا يعني الرجوع، والمآب يعني نهاية الآوب[1]، فكذلك (المرقد) يعني نهاية الرقاد، فضلا عن انه يحمل معه عنصر الذات، فقد اعترفوا بانهم بعثوا بذواتهم وليس - الآخر - حدثا دون ذات.

والتعبير بالمصدر على لسان هؤلاء يوحي بانهم كانوا يظنون ان القبر ورقادهم فيه هو منتهى الامر وليس بعده بعث وحساب وأن ((عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم))[2].

وهكذا يتلاءم اللفظ المستعار مع السياق الوارد فيه، وتختار الكلمات لتكون قوالب لهذه الاستعارات، ولتثير الخيال فتنقله إلى قلب الاحداث والوقائع، أو تجسدها له صورة متحركة بشخوصها وتفاصيلها الدقيقة، وكأنها ماثلة امامه، لتحقق بعد ذلك غايتها في التأثير، فحين تجد النفس مشهد الكافرين في يوم البعث وما ارتسم فيه لا بد لها بعد ذلك من الصحوة أو الاستدراك من قبل ان يأتي يوم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3].

(1) =: معاني الابنية في العربية /34-35.
(2) المحرر الوجيز:310/12.
(3) سورة يس: 50.

خصائص الاستعارة القرآنية[1]:

اورد الرماني اكثر من اربعين شاهدا للاستعارة القرآنية تناولها بتحليلات موجزة كشفت عن بعض خصائص الاستعارة القرآنية والتي كان له السبق في الإشارة إليها، ولعل ابرز هذه الخصائص:

1- الإيجاز:

فقد أشار إليه الرماني في اكثر من موضع، منها قوله في تحليل استعارة (الشهيق) في الآية السابقة من سورة الملك: ((والاستعارة ابلغ منه واوجز))[2]، وكذلك في تحليله لاستعارة (الشوكة) في الآية الثامنة من سورة الانفال إذ يقول ((واعتمد على الايماء إلى النكتة))[3]، واذا كان الحذف يحقق الإيجاز أيضاً فان الرماني يعد الاستعارة ابلغ من الحذف لأن الحذف ((إنما يراد به الإيجاز في العبارة فقط))[4]، وتبعه في ذلك البلاغيون لا سيما عبد القاهر الجرجاني في قوله: ((انها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من الالفاظ))[5].

2- المبالغة:

نبه الرماني إليها في مواضع متعددة، منها قوله في تحليله لاستعارة (طغى) في الآية الحادية عشرة من سورة الحاقة: ((وهو مبالغة في عظم الحال))[6]، وقوله في موضع آخر ((انه اخرج لتفخيم الوعيد))[7]، وقوله ((دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي اعرف عندنا))[8]، وقوله ((إلاّ انه بولغ في العبارة))[9]، وقوله ((على جهة التفخيم لشأنها))[10]. والمبالغة التي يشير إليها الرماني في الاستعارة ليست مجردة وانما هي ((من سبيل ارادة

(1) اشارت بعض المصادر إلى هذه الخصائص دون ربطها بالشواهد القرآنية، ودون ذكر اسبقية الكشف عنها لدى البلاغيين. من هذه المصادر: فن الاستعارة /328، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكري شيخ امين/144-146، التعبير البياني /128، البلاغة فنونها وافنانها /234، الاستعارة في القرآن الكريم /372-378.
(2) ر / 87.
(3) ر / 89.
(4) ر / 92.
(5) اسرار البلاغة /50، 275.
(6) ر /87.
(7) ر / 88.
(8) ر /88.
(9) ر / 94.
(10) ر / 90.

لتوضيح واستقصاء الصفة وانطباع الصورة في المخيلة))[1]، ونجد الإشارة إلى المبالغة بوصفها من خصائص الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني أيضاً[2] .

3- **التأثير:**

ويتمثل ذلك في اشارات الرماني للاثر النفسي الذي تحققه الاستعارة القرآنية والذي تحدثنا عن جانبيه في اثناء التحليل، فمن اشاراته تلك قوله في تحليل استعارة (الصدع) في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [3]: ((لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة... إلاّ ان الايصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة ابلغ))[4]، وقوله في تحليل الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ [5]: ((والاستعارة ابلغ منه لأن مقدار شدة شدة الغيظ على النفس محسوس مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام فقد اجتمع شدة في النفس تدعو الى شدة انتقام في الفعل وفي ذلك اعظم الزجر واكبر الوعظ وادل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة))[6]، وله اشارة اخرى في تحليله للاستعارة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [7]، إذ يقول: ((إلاّ انه في التنفس ابلغ لما فيه من الترويح عن النفس))[8]، النفس))[8]، وقوله في موضع آخر: ((في ذلك شدة الزجر لهم والتنفير من حالهم))[9]. وهكذا نجد الرماني أول من بين الاثر النفسي للاستعارة، وجعله عنصرا اساسا من عناصر بلاغتها وجمالها، وسمة لابد من وجودها فيها والا كان التعبير بالحقيقة اولى، وهكذا ينتفي ما ذهب إليه الدكتور ابراهيم انيس حيث قال: ((وبحوث القدماء على استفاضتها ودقتها وحسن عرضها قد تجاهلت امرا هاما هو في الواقع الاساس الاول للحكم على الدلالة ذلك هو اثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه))[10].

4- **التصوير والتمثيل:**

(1) فن الاستعارة /189.
(2) =: اسرار البلاغة /275.
(3) سورة الحجر: من 94.
(4) ر / 87.
(5) سورة الملك: من 8.
(6) ر /87.
(7) سورة التكوير: 18.
(8) ر /90.
(9) ر/91.
(10) دلالة الالفاظ /128.

أشار إليه الرماني في تحليله للاستعارة في قوله تعالى: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [1]، إذ قال:((والاستعارة ابلغ لما فيه من الاحالة على ما يتصور))[2]، فالاستعارة التي تبرز تبرز المعنى في صورة محسوسة تبلغ غاية شرفها إذا ما هي بنيت على تشبيه التمثيل وهو ما اكده عبد القاهر الجرجاني أيضاً[3]. وقد افاد الرماني من ادراكه لهذه السمة من سمات الاستعارة وتأثيرها في النفس فراح يكشف لنا جمال الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [4].

5- التلاؤم:

وهو تلاؤم اللفظ المستعار مع النظم، إذ أشار الرماني إلى ذلك بصورة غير مباشرة في تحليله للاستعارة في قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [5]، إذ قال: ((فالقذف والدمغ هنا مستعار وهو ابلغ وحقيقته: بل نورد الحق على الباطل فيذهبه، وانما كانت الاستعارة ابلغ لأن في القذف دليلا على القهر، لانك إذا قلت: قذف به إليه فانما معناه القاه إليه على جهة الاكراه والقهر، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب، ويدمغه ابلغ من يذهبه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو اظهر في النكاية واعلى في تأثير القوة))[6]، وهكذا يتجلى تلاؤم النظم في كل الفاظه، فلما استعير (القذف) كان من التناسب استعارة (الدمغ) مع وجود حرف الاستعلاء (على)، ومن التناسب أيضاً تقديم (الحق) على (الباطل) واستخدام الضمير (هو) دون تكرار لفظة (الباطل) للتقليل من شأنه، فتظهر الصورة بهذا التناسب العجيب الذي تحول إلى صورة حسية بوساطة التصوير الاستعاري وكأنها حلبة صراع بين الحق والباطل، نجد فيها المعاني متحركة تعلن انتصار الحق انتصارا محسوسا قريبا من النفس لما للاستعارة من تأثير.

6- الجِدّة:

(1) سورة آل عمران: من 187.
(2) ر / 91.
(3) =: اسرار البلاغة: 49.
(4) سورة الفرقان:23.
(5) سورة الانبياء: من 18.
(6) ر / 89.

في الإشارة إلى هذه السمة يفتح الرماني بابا واسعا يصح تسميته بمعجم الاستعارة، تتحدد فيه الكلمات المستعارة ومعانيها المنقولة إليها[1] ، نجد ذلك في قوله ((كل خوض ذمه الله تعالى في القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء))[2]، وكان هذا جزء من استقصاء معجم المجاز في القرآن وتحديد بعض ملامحه، وكذلك قوله في موضع آخر: ((كل ما جاء في القرآن من ذكر الظلمات إلى النور فهو مستعار وحقيقته من الجهل إلى العلم))[3]. وفي ذلك ما يشير إلى دقته في استقصاء اللفظ القرآني والتمييز بين ما هو حقيقة أو مجاز، وامتلاكه ثروة لغوية مكنته من الكشف عن ذلك.

ويدرك الرماني ان اللفظ المستعار لا يحتفظ - في الغالب - بمعناه الجديد الذي استعمل فيه، فهو يشير إلى ذلك احيانا، من ذلك قوله في تحليل الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [4]: ((حقيقته كبير والاستعارة فيه ابلغ لانه اظهر بوقوع الحاسة عليه، وليس كذلك كل كثرة))[5].

ومن اشاراته إلى (الجدة) أيضاً تحليله لاستعارة (السلخ) في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [6]، إذ جاءت الاستعارة فيه وسيلة للربط بين الطبيعة والفكر، حيث اظهرت صورة تعاقب الليل والنهار جديدة في اعيننا وعقولنا، وتلك هي الجدة التي تحققها الاستعارة والتي اصبحت بها وسيلة تنويع للثروة اللغوية ذلك انها ((عملية خلق جديد في اللغة ولغة داخل اللغة فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات))[7].

7 - الإبانة:

وهي الغرض الاساس الذي ذكره الرماني في تعريفه للاستعارة واكد عليه في تحليلاته لشواهدها.

8- التشخيص:

(1) =: الإعجاز البلاغي /131.
(2) ر / 91.
(3) ر /92.
(4) سورة فصلت: من 51.
(5) ر / 91.
(6) سورة يس: 37.
(7) فلسفة البلاغة /157.

وهو السمة البارزة في الاستعارة القرآنية لاسيما استعارة المحسوس للمعقول، فتشخيص المجردات وتجسيم المعنويات حتى تصبح شاخصة امام العين امر نجده في كثير من الشواهد التي ذكرها الرماني واشار إلى ابلغية الاستعارة فيها لوقوع الحاسة عليها، ولا يشترط ان تكون هذه الحاسة (بصرية) فقط لتحقق الاستعارة غايتها كما ذهب إلى ذلك الدكتور رجاء عيد إذ قال: ((ان الاستعارة كلما تحقق لها جانب بصري أو ادراك مميز اعطتنا - كما يقول ارسطو - مسرة، لكنها تطرح إذا لم يكن هذا الجانب التشبيهي المتميز بالرؤية البصرية واضحا))[1]، ثم ينقض ما ذهب إليه ليقول ((قد تثير الكلمات في تركيبها اللغوي احساسا ومشاعر قد تكون غامضة بل وغير مميزة، ولكن من الممكن ان يكون ذلك سمة فنية لها قيمتها الجمالية أيضاً، وبداهة نحن نقصد الغموض الفني لا الابهام الرديء))[2]. وهكذا نجد ان انواع الحواس جميعا تشترك في ادراك معطيات الاستعارة الجمالية (لفظا ومعنى) وليس البصر فقط.

وفي ضوء ذلك يمكن القول ان حديث الرماني عن الاستعارة القرآنية حديث فيه كثير من الخصائص الفنية لها من حيث قيمتها وتأثيرها وما تؤديه من غايات وهو حديث تميز برهافة الحس والذوق الرفيع، لا سيما في النظر إلى ما وراء اللفظ المستعار من ابعاد ومقاصد، وقد استطاع الرماني من خلال ذلك ان يجلي المعطيات الجمالية للاستعارة والتي تتمثل في اتجاهين ((جمالية المضمون وجمالية التعبير))[3]، وفي ضوء ذلك لا يمكن التسليم بما ذهب إليه الدكتور احمد مطلوب في الحكم على الرماني إذ قال ((واسلوبه في الكتاب أسلوب المتكلم الذي يفلسف القضايا الادبية ويعالجها معالجة فيها بعد عن الفن والذوق الادبي))[4].

لقد بقيت خصائص الاستعارة وشواهدها التي ذكرها الرماني تمثل المادة الاساس لحديث البلاغيين بعده، من ذلك ما نجده عند الحاتمي[5]، وابي هلال العسكري[6]، وابن سنان[1].

(1) م ن /152.
(2) ن / 152.
(3) الاستعارة في القرآن الكريم / 323.
(4) البلاغة عند السكاكي / 93.
(5) =: الرسالة الموضحة /69.
(6) =: كتاب الصناعتين / 299 - 300.

الاستعارة والاعجاز:

تمثل الاستعارة عند الرماني وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، إلى جانب الاوجه التسعة الاخرى، ولم يبين الرماني - بشكل صريح - كيف كانت الاستعارة من دلائل هذا الإعجاز مثلما لم يبين ذلك في الإيجاز والتشبيه، وهو في ذلك يلفت إلى باب كبير من ابواب البحث[2]. يدعو فيه إلى دراسة الاستعارة بشكل عام واغراضها التي سيقت فيها ومدى فائدتها، ثم دراسة الاستعارات القرآنية وتحديد ابواب المعاني التي جرت فيها بدقة واغراضها وفوائدها ليتجلى بعد هذال الباب الواسع من الدرس الدقيق اثر الاستعارة في الإعجاز البلاغي.

واذا كان عبد القاهر الجرجاني قد أكّد - خدمة لنظريته - ان الإعجاز ليس باللفظ المستعار وانما هو في النظم، فان الرماني على الرغم من تاكيده في تحليلاته للشواهد على اللفظ المستعار إلاّ انه لم يغفل اثر السياق وتلاؤم اللفظ المستعار معه في تحقيق ابلغية الاستعارة بوصفها وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، لاسيما وان (النقل) الذي ورد في تعريفه للاستعارة لا يحدث إلاّ بوجود علاقات وتآلف وتفاعل بين اجزاء التركيب الاستعاري، وليس لنا إلاّ ان ننظر في تحليلاته للآيات (38 من سورة الانبياء) والآية (12 من سورة النحل) والآية (11 من سورة الكهف)، لندرك انه لم يغفل اثر السياق والنظم في تحقيق ابلغية الاستعارة، ولو لم يكن الرماني كذلك لما استطاع ان يحدد مجازية اللفظة في هذه الشواهد لأن ((الذي يحدد مجازية اللفظة هو السياق وطبيعة المقام وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلاّ إذا كان المتصفح للكلام حساسا))[3]، يستحضر في خياله المقام الذي تعرض فيه الصورة الاستعارية ويتمثل جوانبها الدقيقة.

وهكذا كان الرماني، إذ لم يعن ببيان اطراف الاستعارة أو بسرد الامثلة - كما فعل سابقوه - ولم يعن باكثار التقسيمات والمصطلحات بشتى الاعتبارات - كما فعل اللاحقون له - فحسب وانما اهتم بما وراء اللفظ المستعار واظهار ما فيه من جمال وحسن في اختياره والعدول عن المعنى الحقيقي.

---

(1) =: سر الفصاحة / 136 - 137.
(2) =: الإعجاز البلاغي /133.
(3) من أساليب البيان في القرآن /129.

وحين يقول الرماني ان الاستعارة ابلغ، فانه يدرك ان الذي يحدد القيمة البلاغية للاساليب هو موقعها في السياق ومدى مطابقتها له وان بلاغة الاستعارة - في احد جوانبها - تنبثق من تلاؤم اللفظ المستعار مع السياق الوارد فيه ومع المعنى الذي اريد التعبير عنه، لذلك نجده في بيان الاثر النفسي للاستعارة قد تعامل معها على انها ((مخزن لطاقات شعورية متفاعلة نشطة متحركة غير ساكنة))[1] واستطاع من خلال ذلك ان يظهر لنا بعض خصائص الاستعارة القرآنية.

وقد يؤخذ على الرماني انه خلط بين الاستعارة وانواع المجاز الاخرى التي استقر عليها الامر فيما بعد ويتمثل ذلك في تحليله لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2]، إذ يعدها استعارة، وما قاله العلماء فيما بعد انها مجاز مرسل علاقته المسببية، أو مجاز عقلي[3]. وكذلك في تحليله لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[4]، إذ يعدها استعارة ويشير إلى ان المعنى ((حتى يضع اهل الحرب اثقالها))[5]، واذا كان كذلك كان مجازا عقليا، وانما الاستعارة في (الاوزار) وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[6]. ويشير إلى ان الاستعارة ابلغ من الحذف والمعنى (ذو ريبة) وهو ما عرف أيضاً بالمجاز العقلي بعلاقة المصدرية.

وقد أشار الرماني الى المبالغة بوصفها وظيفة اساسية للاستعارة، في حين انه افرد لها بابا خاصا بوصفها وجها من وجوه الإعجاز البلاغي عنده، ولم يدخلها في باب الاستعارة لكي لا تختلط الحدود، فالمبالغة في الاستعارة تقوم على التشبيه لاجل استغراق المعنى والاحاطة به، في حين انها في الباب الآخر تقوم على علاقات من نوع آخر، وهو ملمح يجلي دقة الرجل وذكاءه لاسيما وان هذه التفرقة كانت مدخلا لتأويل بعض الآيات في(التوحيد والعدل) حسب مذهبه الاعتزالي، والتي يصعب تأويلها على اساس الاستعارة، وهو ما اشرنا إليه في مبحث المبالغة.

(1) فن الاستعارة /216.
(2) سورة الاسراء: من 12.
(3) =: التفسير الكبير: 20 / 165 - 166، رسالة الرماني تحليل ونقد /134.
(4) سورة محمد: من 4.
(5) ر / 90.
(6) سورة التوبة: من 110.

ان هذا الخلط الذي نجده عند الرماني لا يقلل من شأنه أو من شأن ما قدمه في باب الاستعارة، فهذه التقسيمات لانواع المجاز لم تكن تعرف في عصره، وقد بقي الامر كذلك عند بعض البلاغيين ممن جاؤوا بعده حتى دخلت البلاغة عصر التقسيمات التي اطفأت ملكة الشعور بالجمال والاحساس والذوق الاصيل.